المقاومة الثقافية في أدب المعتقلين الفلسطينيين "الشعر نموذجا"

The Cultural Resistance in The Literature of Palestinian Detainees, Poetry as A Model

د. محمود زياد*

ملخص البحث

هدفت الدراسة التعرف إلى المقاومة الثقافية في أدب المعتقلين الفلسطينيين، واتخذت من الشعر نموذجا. حاول الباحث الإجابة عن السؤال الرئيس المتمثل في: ما دور أدب المعتقلين عموما والشعر خصوصا في المقاومة الثقافية؟ وقد ناقش الباحث من خلال الدراسة مقاومة المعتقلين الثقافية داخل المعتقلات، والمقاومة الثقافية من خلال الأدب، وعلاقة شعر المعتقلين بالمقاومة الثقافية، وأخيرا، شعر المعتقلين ودوره في عملية التحريض ضد المحتل. ولتحقيق أهداف الدراسة استخدم الباحث المنهج الوصفي التحليلي. وقد خلصت الدراسة إلى مجموعة من النتائج والتوصيات.

الكلمات المفتاحية : المقاومة، الثقافية، أدب، شعر، المعتقل، فلسطين.

Abstract

The study aimed to identify the cultural resistance in the literature of Palestinian detainees, and took poetry as a model. The researcher tried to answer the main question represented in: What is the role of the detainees' literature in general and poetry in particular in the cultural resistance? Through the study, the researcher discussed the cultural resistance of the detainees inside the detention centers, the cultural resistance through literature, the relationship of the detainees' poetry with the cultural resistance, and finally, the detainees' poetry and its role in the process of incitement against the occupier. To achieve the objectives of the study, the researcher used the descriptive analytical approach. The study concluded a set of results and recommendations.

Keywords : Cultur. Resistance. Literature. Poetry .Palestin. Detaine .

*فلسطين.

مقدمة:

إن الحديث عن مفهوم المقاومة الثقافية يستدعي الحديث عن الحالة الفلسطينية، التي تقاوم عمليات الاستيطان والتهجير والقتل اليومي المستمر. والمقاومة لا تنحصر في جانب دون الآخر، فأشكالها متعددة ومختلفة؛ فمنها المقاومة المسلحة، والمقاومة السلمية التي تستخدم طرقا متعددة، ووسائل مختلفة ينتهجها الشعب الواقع تحت الاحتلال في مقاومته للاحتلال؛ لإيمانه بقدرتها على إحداث التغيير، وعلى تمكينه من الوقوف في وجه الآخر.

فالمقاومة في الإطار الثقافي، تستطيع أن تخلق حالة جديدة، وأداة مختلفة قادرة على التغيير والتأثير، وبخاصة عندما يكون ما تعبر عنه حالة واقعية معيشة، قريبة من الحقيقة أكثر من قربها من الخيال، وقادرة على إسقاط مشاعرها وتجاربها بطريقة صحيحة وهادفة، فربما يكون الأساس في مشروع المقاومة الشاملة هو الأساس الثقافي؛ لأن "نجاحه مرهون بقدرته على إقناع أكبر قدر من الناس بإمكانية تحقيق المقاومة للأهداف الوطنية والقومية. وهو مؤطر ثقافي أيضا لأنه يستند إلى تخليق جديد لمفهوم العروبة"[1].

وبما أن الثقافة "لا تخضع لمجموعة من القوانين والقواعد، والمقصود لا يمكن أن يتم ضبطها بقاعدة وخطوط حمراء؛ وإنما هي تعبير حر عن أحاسيس ومشاعر وحالات إنسانية ووجدانية وإبداعية"[2]. فهذا من شأنه أن يساعد على تطويع الثقافة لأهداف المقاومة، ومحاولة استخدامها بشكل صحيح كأداة قادرة على التغيير أكثر من أية أداة أخرى. ولذلك، فالثقافة عنصر أساسي، وهي مهمة للمجتمع وللأفراد، فلا مجتمع إنساني دون ثقافة، ولا ثقافة دون مجتمع إنساني؛ فهما ظاهرتان متماسكتان أشد التماسك، ومحو الثقافة من أي مجتمع إنساني يعني سلخ بشريته[3].

وبناء على ذلك، فإن تجليات الثقافة وأدواتها: كالشعر، والنثر، والأغاني، والمسرح، وغيرها من الفنون، تستطيع رفع مستوى وعي الناس، ولكن، ليس بالفن بحد ذاته يتغير العالم، ولكن للفن دور أساسي باعتباره منارة للتغيير.

ISSN: 2352-9830 EISSN: 2600-6898

لقد تميز شعر المقاومة على سبيل المثال "بالإيمان بالشعب والثقة بقدرته على اجتثاث الظلم واليقين المطلق بانتصاره الآتي، وبتلوينه بين التمرد وطلب الحرية للوطن وللفرد، بحيث يختلط العام بالذاتي والخاص، كما تميز بتكريم الشهادة، وإبراز أهمية التضحيات التي قدمها الشهداء؛ ليكونوا منارة تشعل الطريق ويقتدي بها جيل كبير هو جيل المقاومة"[4].

الإشكالية والفرضيات

تشكل المقاومة في الأدب جزءا من المقاومة الثقافية بعامة، وفي تاريخنا الحديث والمعاصر كان ثمة مقاومة مسلحة دائماً، ترافقها مقاومة ثقافية، ربما كان من أبرزها المقاومة الثقافية في مواجهة الغزو الاستيطاني الصهيوني. وبناء على ما سبق، يسعى البحث إلى بيان دور أدب المعتقلين الفلسطينيين وتحديدا الشعر في المقاومة الثقافية، وكيف تم التعبير عن ذلك؟ ويتفرع عن ذلك مجموعة من الأسئلة الفرعية منها:

أولاً، ما مفهوم المقاومة الثقافية في الأدب العربي بشكل عام والفلسطيني بشكل خاص؟.

ثانياً، ما ملامح المقاومة الثقافية التي مارسها المعتقلون الفلسطينيون في المعتقلات الإسرائيلية؟.

ثالثاً، ما دور أدب المعتقلين الفلسطينيين وتجلياته في المقاومة الثقافية؟.

أهمية الموضوع

تكمن أهمية الموضوع أن الذين أنتجوا هذا النوع من المقاومة الثقافية المتمثلة بالأدب، كانوا جزءاً أصيلا ومحوريا في عملية المقاومة العسكرية والنضالية ضد الاحتلال. وبالتالي يدور الحديث –هنا- عما يسمى أدب المقاومة. فالموضوع يتعلق بدور أدب المعتقلين الفلسطينيين في المقاومة الثقافية، وإثراء التجربة الأدبية من خلال التركيز على موضوع المقاومة الثقافية، وتقديم دراسة جديدة لمكتبة الأدب العربي الفلسطيني؛ ليتسنى للباحثين والدارسين وجهات الاختصاص الاستفادة من محاور البحث وأفكاره.

أهداف الموضوع:

أولاً، معرفة دور أدب المعتقلين الفلسطينيين في المقاومة الثقافية.

ثانياً، الكشف عن علاقة هذا الأدب العربي الفلسطيني بأدب المقاومة.

ثالثاً، تسليط الضوء على تجليات الأدب العربي الفلسطيني في المقاومة الثقافية.

رابعا، توضيح رؤية الشعراء المعتقلين في المقاومة الثقافية.

منهج البحث:

يستخدم الباحث المنهج الوصفي التحليلي، من خلال استحضار نماذج من شعر المعتقلين الفلسطينيين.

الدراسات السابقة

دراسة الإسلام (2022) البحث محاولة لقراءة أدب روّاد المقاومة الفلسطينية الفكرة والرؤية والفن، وكيف واكب الشاعر مأساة القضية الفلسطينية؟ حيث تغيّرت حياتهم كلها وتبدّلت إلى مقاومة وصراع من أجل الوجود والهوية مع عدو جاء غاصباً فاتكاً متشبثاً بغلب الحقائق وتمويه الأمور. فقد حاول روّاد المقاومة ومن خلال الأدب تبيين ما تعرض له الإنسان الفلسطيني وما يعانيه من البؤس، والآمال المعلقة على تحرير أرضه التي سلبت ظلماً على يد العدو المتغطرس. وقد استخدم روّاد أدب المقاومة في فلسطين لهذا الغرض أنواع الأساليب الأدبية واستطاعوا مقاومة الاحتلال لتبقى فلسطين لأهلها ولتبقى أرضاً مقدسة للعالم أجمع كما يرى الباحث.

دراسة دراوشة (2019) سعى الباحث إلى دراسة دور الأدب الفلسطيني وتجلياته في مواجهة صراع الهوية، وذلك بتسليط الضوء على الأدب العربي الفلسطيني وصراع الهوية، والحديث عن تجليات الأدب العربي الفلسطيني في صراع الهوية، من خلال السياق الأدبي العام لنصوص الخطاب المنجزة، والكشف عن دور الأدب العربي الفلسطيني وتجلياته في مواجهة صراع الهوية.

ISSN: 2352-9830 *EISSN: 2600-6898*

دراسة الجاغوب (2019)، سعى الباحث من خلالها إلى توثيق التجارب الاعتقالية للأسرى داخل المعتقلات الإسرائيلية، حيث تناول الباحث في دراسته قصصا وحكايا من محطات الحياة داخل المعتقلات. وقد صور من خلالها أحلام الحرية وكوابيس الأسر، والاعتقال والزنازين، والتحقيق بأساليبه الوحشية، والقمعية.

مقالة مسلماني (2019)، رأت الكاتبة فيها أن الرسالة تشكل مساحة رئيسة في حياة الأسير الفلسطيني للبوح والإبداع على حد السواء، كما أصبح لها حضور على قدر كبير من الأهمية في التجربة الاعتقالية على مدى عقود الاحتلال. وهي ترى أنه إذا كانت الرسالة، نافذة الأسير الفلسطيني إلى العالم الخارجي، يعبر من خلالها عن مشاعره وأفكاره وأشواقه إلى الأهل، ويروي فيها تفاصيل حياته في السجن، فهي في المقابل نافذة العالم الخارجي على السجن، إذ يقرأ ذوو الأسرى والعالم من خلالها ليس فقط حياة الأسر بمختلف تفاصيلها، بل أيضاً العالم الداخلي لذات الأسير.

دراسة حمدونة (2018)، تتناول الدراسة الجوانب الابداعية في تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية الأسيرة في الفترة ما بين 1985 إلى 2015م. وقد تناول الباحث في دراسته صراع العقول بين الحركة الوطنية الفلسطينية الأسيرة، وإدارة مصلحة السجون الإسرائيلية على مستوى إدارة الوقت وبناء الذات في شتى المجالات، بالتفكير والتخطيط، ووضع البدائل والوسائل والأهداف، وتحقيق الحقوق.

دراسة أبو صلاح (2016) تهدف الدراسة بشكل رئيس التعرف إلى دور الشعراء الفلسطينيين في تنمية الأدب الفلسطيني في الفترة (٢٠٠٠-٢٠١٥م)، وذلك من خلال الآثار الشعورية الناتجة من الحروب والانتفاضات المتتالية، بالإضافة إلى التعرف على الدوافع والاعتداءات التي تواجه الشعر المقاوم في فلسطين وسبل الحد من تلك المعوقات. وبينت الباحثة دور الشعر المقاوم في الدفاع عن القضية الفلسطينية.

مقاومة المعتقلين الثقافية داخل المعتقلات الإسرائيلية:

عملت سلطات الاحتلال الإسرائيلي ضمن سياسة ممنهجة؛ لحرمان المعتقلين الفلسطينيين من أبسط حقوقهم، فناضلوا من خلال الاضرابات عن الطعام استمرت نضالاتهم حتى وصلت ذروتها عام 1992 وذلك بعد الاضراب الشهير عن الطعام الذي خاضه الأسرى والذي تبلورت في إثره فكرة تمكين الأسرى من التعلم بشكل جماعي[5].

شكل المشهد الثقافي داخل معتقلات الاحتلال أهم معالم الحياة الاعتقالية التي صاغتها الحركة الأسيرة منذ نشأتها قبل عقود وحتى يومنا هذا، حيث برزت حاجة المعتقلين إلى بلورة أشكال خاصة بالممارسة الثقافية اليومية منذ بدايات نشوء الحركة الأسيرة. فقد عمل المعتقلون على تشكيل النواة الأولى لحراك ثقافي واسع[6].

عمل السجّان على قمع الأسرى، ومارس تعذيبه، وقهره ولجأ إلى منعهم من أبسط الحقوق الإنسانية مثل: الحق في القراءة عبر منع إدخال الكتب، ومنعهم من حق الكتابة، فلم يسمح بإدخال الأقلام والأوراق في الزنازين. وهذا القمع الثقافي الذي مارسته إدارات سجون الاحتلال الإسرائيلي، يأتي بسبب إدراكهم أن الحالة الثقافية تشكل أداة أساسية للمقاومة من جانب المعتقلين الفلسطينيين. وكان إضراب معتقل عسقلان في1970/7/5م ، ناجحاً في كسر بعض القيود الثقافية، إذ تم فيه السماح بإدخال الكتب الثقافية المختلفة، عن طريق الصليب الأحمر، بعد ورودها على الرقابة، وموافقة الجهات الأمنية عليها، ولقد كان الأسرى يهربون كتاباتهم ، ويحمونها من مداهمات السجّانين، حتى يأتي الوقت الذي يستطيعون فيه أن يخرجوها من أسرها ، كما ان العديد من المثقفين ، أخذوا على عاتقهم البدء بمحاولة التغيير التنظيمي، والثقافي، فبدأوا بعقد الجلسات الثقافية، وإلقاء المحاضرات الخاصة بالصراع الفلسطيني الصهيوني[7].

يقول الدكتور عبد الخالق محمد العف: "طبيعة الحياة الثقافية في المعتقلات الإسرائيلية، فقد استمد الإسرائيليون قمعهم الثقافي وسياسة التجهيل والتنكيل من

استراتيجية "العمل على إلغاء الهوية الفلسطينية، وتشتيت الشعب الفلسطيني ، وتحويله إلى مجرد أفراد يبحثون عن لقمة العيش"[8].

وقد تدرج الأسرى في سلم تحسين أوضاعهم المعيشية والإنسانية، عبر مراحل نضالية طويلة، فقد ظلت الحركة الوطنية الأسيرة ، تناضل أكثر من عشر سنوات لتستطيع أن تحقق انجاز امتلاك القلم والورقة. لقد كان على الأسير أن يتضور جوعاً، بل ويموت من أجل أن يحصل على قلم أو كتاب، وأن يرتقي بمستواه الثقافي، ليعيش بالتالي مراحل قضية شعبه ووطنه، ويسهم بإيجابية في تحقيق الأهداف الفلسطينية المنشودة"[9].

كما حوصر الأسرى ثقافياً: بمنعهم من الحصول على القلم والدفتر والكتاب، وإجبارهم على سماع الإذاعة الإسرائيلية في أوقات محددة، ولم يسمح لهم بقراءة الصحف سوى صحيفة الأنباء التي تصدرها أجهزة المخابرات الإسرائيلية، وكان الأسير الذي يتم ضبط قلم أو ورقة معه يعاقب في زنزانة انفرادية، وكان أشدّ الأساليب خطورة هي سياسة الإفراغ الثقافي والفكري، من خلال ترويج كتب ثقافية فارغة المضمون داخل السجون[10].

لكن استطاع المعتقلون الفلسطينيون بقصاصات ورقية وقلم رصاص، توثيق تجربة الأسر داخل زنازين الاحتلال الإسرائيلي، حيث التعذيب النفسي والجسدي أثناء التحقيق لانتزاع الاعترافات، وحرمانهم أبسط الاحتياجات الآدمية للضغط عليهم وإذلالهم، ومع ذلك فجرت هذه التجربة القاسية الطاقات الإبداعية لنقل واقعهم إلى الخارج عبر كبسولة صغيرة.

وقد كانت البداية الأدبية كانت في سبعينيات القرن الماضي عبر الرسائل التي يبعثها المعتقل إلى ذويه، وكانت عبارة عن ديباجات إيحائية معيّنة لجأ إليها لتمويه الرقيب الإسرائيلي، فكانوا يختارون أبياتًا من الشعر أو عبارات من النثر يسطرون بها رسائلهم. وكان التعبير بالشعر البدايات الأولى في إبداع المعتقلين، فهو أسرع الأنواع الأدبية استجابة للتعبير عن المعاناة، لذا لجأ عشرات المعتقلين إلى المحاولات الشعرية التي تترجم مشاعرهم

وتعبّر عن مكنونهم النفسي، حتى أُصدر أول ديوان شعري مشترك بعنوان "كلمات سجينة" سنة 1975[11].

ويمكن القول: إنه منذ ولادة الحركة الأسيرة داخل سجون الاحتلال الإسرائيلية، نجح أدباؤها بفضح الرواية الإسرائيلية الزائفة وتثبيت الرواية الفلسطينية التي توضّح تشبُّث الفلسطيني بأرضه ودفاعه عنها، حتى لو قضى عمره بين الزنازين يقاوم المحتل بطريقته وبأبسط الأدوات لتوثيق تجربة تُحفظ لأجيال.

المقاومة الثقافية من خلال الأدب

يبرز الأدب كشكل من أشكال المقاومة الثقافية، حين تتشكل النصوص وفق آليات تتوخى الرد على تزييف التاريخ والاختلاق، وهو ما يظهر واضحا فيما كتبه الشعب الفلسطيني في الأدبيات المختلفة، بغض النظر عن كونها روايات أو أشعار أو غيرها من الكتابات[12]

وإذا كان الأدب -كما يقول غالي شكري: "في ذاته نشاط إنساني يقاوم عوامل الضعف والخور التي قد تلم بالنفس البشرية في لحظات الانكسار. فليس هناك عمل أدبي جاد في تاريخ الإنسان القديم والحديث، يمكنه أن يخلو من هذه السمة البارزة وهي" المقاومة" لأن هذا العمل يفقد عنصرا خطيرا من مكونات وجوده إذا خلا، من أحد وجوهه، من فكرة الصراع بين الإنسان والكون، سواء تمثل هذا الكون في الوجود الطبيعي أو النسيج البشري"[13].

فالمقاومة من خلال الشعر أو الأدب جزء من المقاومة الثقافية بعامة. وفي تاريخنا الحديث والمعاصر كان ثمة مقاومة مسلحة دائماً، ترافقها مقاومة ثقافية، ربما كان من أبرزها المقاومة الثقافية في مواجهة الغزو الاستيطاني الصهيوني.

وتكمن الأهمية التاريخية لأدب المقاومة في أنه لدى مختلف الشعوب عكس مرحلة تاريخية معينة، مرّ بها ذلك الشعب، كما وارتبط بمهمة تغيير ظروف الإنسان غير الطبيعية. فقد تميزت آداب المقاومة، كالمقاومة الفلسطينية، بالصراع من أجل تحرير الأرض

والإنسان، وإعادة بناء الذات الإنسانية من جديد. "فالكلمات مسدسات محشوة بقذائفها، فإذا تكلم الكاتب فإنما يصوب قذائفه، أو يجب أن يصوب تصويب رجل يرمي إلى أهداف، لا تصويب طفل يغمض عينيه ويطلق مصادفة من غير أن يكون له هدف سوى السرور بسماع الدوي"[14].

وقد شاع مصطلح "أدب المقاومة" في الحياة الثقافية خلال النصف الثاني من القرن العشرين، وتحديداً بعد معارك 1967، حيث تشكلت الأعمال الأدبية والأشعار التي تسربت من الأرض المحتلة في فلسطين إلى عواصم الدول العربية بأقلام محمود درويش، وسميح القاسم وغيرهما من الشعراء الذين لقبوا في حينه، "شعراء المقاومة". ولما تعددت الكتابات الإبداعية في أجناس الأدب المختلفة في إطار النمط المقاومي، كان "أدب المقاومة" مصطلحاً جديداً[15].

إن أدب المقاومة هو الأدب الإنساني الذي نجده عند كل أمة من الأمم نتيجة وقوعها تحت ظلم طويل خانق دفع بمشاعرها وأحاسيسها لرفض هذا الظلم والتمرّد عليه ووضع حدٍ بعدم الرضوخ والخضوع له إذن يمكن الحديث عن ظاهرة شعرية جديدة في الشعر العربي الحديث، ألا وهو شعر "المقاومة"، ونعني به تلك الأعمال التي تم تكريسها لإبراز الرفض والمقاومة والانتفاضة الفلسطينية في الأرض المحتلة[16].

وفي الحقيقة هناك فارق بين من يكتب عن المقاومة، وبين من يعيشها، بين الذي يتصور المقاومة ويتخيلها، وبين من يكتب وهو في معمعانها، وبين نيرانها. "فأدب المقاومة هو، أدب المقاومين، أولئك الذي يعيشون التجربة لحظة بلحظة، وهو أدب يرى فيه المقاومون أنفسهم، ويراهم منه ويحس بهم كل الناس"[17]. فقد أتيح لأدب المقاومة تجربة إنسانية عميقة، وهي تجربة الحرب والمقاومة. فأدب المقاومة تجربة منفردة من بين الآداب الإنسانية عامة، لأنه ينتج خلال ظروف الحرب وتقرير المصير التاريخي، ولا يتوهج أدب المقاومة إلا في قلب المقاومة حيث يعانق المقاتل وجدان الفنان .

ولذلك يرى غالي شكري ضرورة التفريق بين الأدب الذي يقاوم قبل حدوث المحنة، وهو الأدب الذي يرتفع إلى مستوى النبوءة، والأدب الذي يؤرخ للأزمة بعد انتهائها بوقت طويل أو قصير[18]. فالأدب المقاوم هو ما يبدعه الأديب المقاوم الذي يساهم في المعركة أو الحرب عملياً. وانطلاقا من هذا الفهم للأدب المقاوم. فالأدب العربي الذي يصارع الصهيونية في جميع أرجاء الوطن العربي هو أدب ثوري إنساني، أما الأدب الذي يكتبه كل من محمود درويش، وسميح القاسم، وتوفيق زياد وغيرهم في الأرض المحتلة فهو أدب المقاومة. فما يميز أدب المقاومة هو الصراع ضد من يصنع الحرب، ومآسيها، وهو الأدب الذي يساهم في عملية تغيير الإنسان والعالم، ويحمل روح الثورة والمقاومة والصمود[19].

وعليه، فما يمكن قوله: إن الفن إبداع، وكونه كذلك، فمن شأنه أن يسد النقص الذي يعتري الواقع، وعليه، فهو ثوري بطبعه، إذ أنه يستطيع أن يغير، وأن يضيف أشياء حقيقية مختلفة. وهنا تأتي العلاقة بين الفن والمقاومة، فالفن هو وسيلة من وسائل المقاومة، وإذا كانت المقاومة متنوعة الوسائل والأدوات بحسب موضوعها وهدفها، وما يحتاجه كل موضوع من سلاح مناسب وطريقة وأداة مناسبة، فإن للفن القدرة على استيعاب الوسائل والأساليب والأدوات المختلفة وبلورتها بما يتلاءم مع كل الموضوعات.

علاقة شعر المعتقلين بالمقاومة الثقافية

ظهر الأدب الفلسطيني، كما تمت الإشارة سابقا، في ظل وجود صراع أيديولوجي وثقافي متعدد الأوجه، يستهدف الوجود الفلسطيني وجذوره التاريخية[20]. ويأتي شعر المعتقلين ضمن إطار الشعر الفلسطيني المقاوم. فهذا الشعر أنتج في ظروف لها خصوصيتها، وشعراء المعتقلات الذين أبدعوا هذا الشعر، كان لهم دور في الثورة ضد المحتل، فقدموا أنفسهم وحملوا أرواحهم على أكفهم، وعانوا في سبيل القضية الفلسطينية التي هي قضيتهم. وشكلت قصائدهم عنصرا مهما في عملية التحريض ضد الاحتلال.

أما تجربة الاعتقال التي عاشها أولئك الشعراء، فقد أثرت في تلك القصائد والأشعار، وبالمقابل كان هناك تأثير لهذه القصائد في تجربة الاعتقال، من حيث أنها قدمت مضامين جديدة، واتجاهات متنوعة من حيث الشكل والمضمون.

وبناء على ما سبق؛ فالاعتقال أسهم في إنتاج تجارب شعرية تفاعلت مع تجربة الاعتقال، أنتجته في قوالب متنوعة أضافت للأدب الفلسطيني المقاوم نماذج قوية، فأدب المعتقلين "أدب واعد وعلى مستوى جيد من حيث الشكل أو المضمون، رغم الظروف الصعبة التي يعيشها السجناء ورغم أن كتاباتهم مهددة بالمصادرة. فوصول هذا النتاج الأدبي إلى القراء يعتبر إضافة هامة، كما ونوعا، إلى أدبنا الفلسطيني المقاوم إضافة إلى أنه سيكون لها أثرها على أدبنا الفلسطيني عامة"[21] كما يقول جمال بنورة.

أما حسين مروة في تشخيصه للشعر الفلسطيني المقاوم فيقول: "إن هذا الشعر الثوري لا يعبر عن ثورية أصحابه معزولين عن حركة جماهيرية يعبرون عن صراعها، أي أن هؤلاء الشعراء ليسوا مجموعة من أشجار النخيل النابتة في صحراء قاحلة. إن كونهم شعراء يملكون أصواتا مسموعة، لا ينبغي أن يخلق الانطباع بوحدانيتهم، وبانقطاع انتمائهم إلى جماهير تملك ماضيا وحاضرا ثوريين"[22] وبالتالي فالمتفحص لهذا القول، سيجد أن هذا التشخيص ينطبق على الشعر الاعتقالي، وأكثر من ذلك فإنه يدخل في صميم تصنيف حسين مروة.

وعلى هذا الأساس فإن ما قيل عن الأدب الفلسطيني المقاوم يشمل بكل تأكيد الأدب الاعتقالي، ما دام الأساس والمصدر واحدا. وما دامت الرؤية والهدف يتفاعلان تحت سقف مرحلة التحرر الوطني، بكل تبعاتها المحلية، وبكل ارتباطاتها الإنسانية والكونية.

لقد ولدت قصائد المعتقلين، وإنتاجاتهم الأدبية؛ نتيجة معاناة نفسية، وجسدية، فردية وجماعية، معاناة قاسية ومؤلمة. وهذه الإبداعات تقوم برصد استجابات عكسية لممارسات الاحتلال الواسعة النطاق التي كانت تستهدف إخضاع شريحة واسعة من الفلسطينيين. وقد تجلت هذه الاستجابات بالرفض والتحدي والدخول في مواجهات كلما

اقتضت الضرورة ذلك. وهو ما يسم هذه الكتابات والإبداعات التي تعبر عن مدى درجة التحرر الداخلي التي وصل إليها الأسير المبدع، ومدى عمق رؤيته الإنسانية المستندة إلى انتماء صادق ووعي عال.

شعر المعتقلين ودوره في عملية التحريض ضد المحتل

اتخذ نضال الشعب الفلسطيني أشكالا كثيرة في مواجهة اليهود، فمنهم من حمل السلاح، ومنهم من حمل الحجر، ومنهم من حمل القصيدة في قلبه ليرددها على مسامع الملايين أينما كانوا، إنهم الشعراء الذين كرسوا كلماتهم للأرض والإنسان الفلسطيني، فعملوا على تحريض الشعب عبر الكلمة الثورية الصاخبة مؤمنين أن الرفض والتمرد هما الدرب الأوحد للخلاص والحرية. وجاء الشعر ليشكل الرسالة الموجزة أو البيان العسكري ذا الإيقاع الخاص في المعركة، كما قال محمود درويش:

قصائدنا، بلا لون
بلا طعم... بلا صوت!
إذا لم تحمل المصباح من بيت إلى بيت!
وإن لم يفهم "البسطا" معانيها
فأولى أن نذرّيها
ونخلد نحن... للصمت!![23]

فالكلمة إذا كانت لهدف فهي أسمى تعبيرا عن استراتيجية إنسانية، وسياسية، وثقافية يتنفس المبدع من خلالها بكل أدواته الإبداعية. والعمل الأدبي الفلسطيني هو انعكاس لوثائق النضال الفلسطيني بأشكال مصورة كما يعبر عنه الشاعر راشد حسين في هذا المقطع:

قالت: أخاف عليك السجن قلت لها من أجل شعبي ظلام السجن يلتحف
لو يقصرون الذي في السجن من غرف على اللصوص لهدت نفسها الغرف
لكن، لها أمل أن يستضاف بها حر فيزهر في أنحائها الشرف[24]

ISSN: 2352-9830 EISSN: 2600-6898

فالشاعر يتحدى ويصر على أن يعبر الطريق إلى الشرف، عندما تخاف عليه محبوبته من السجن، وهو بذلك يضحي بحريته، مواجها الأخطار، ومدركا أن ما يفعله من مقاومة لأجل الوطن، هو مجال عز وشرف. لا يقف عند حدود الإنسان وإنما يتعداه إلى الجماد الذي يدرك قيمة الإنسان الحر الذي يبحث عن الكرامة والحرية.

قاوم المعتقلون واقع السجن بأشكال عدة ومنها: الكلمة المؤثرة التي تعبر عن أفكار المعتقلين ومشاعرهم وأوضاعهم. تصف حالهم، وتعبر عن مأساتهم، تتأمل وتحلق عاليا في سماء الوطن. تنتظر الغد الآتي من بعيد، تنتظر بفارغ الصبر أن يلوح في الأفق ما يبشر بفرج قريب. فقد استطاع المعتقلون من خلال الكتابة، أن يوجدوا نافذة يطلون من خلالها على الوطن الذي سلبوا حرياتهم لأجله. فأنتجوا أدبا فلسطينيا جسّد معاناة الفلسطيني بكل أبعادها وأشكالها، وراح يصور حياة الإنسان الفلسطيني. وقد أسهمت القصائد، التي نجحت في التحرر من الأسلاك الشائكة، في عملية التحريض ضد الاحتلال وممارساته.

يشكل الأدب في حياة الاعتقال بشكل عام، والشعر بشكل خاص، جزءا من حركة المقاومة المستمرة، التي يخوضها الشعب الفلسطيني؛ فهذا الأدب ليس معزولا عن واقع المعتقلين، وربما يكون بشكل أكثر، من أي مجال ثقافي آخر كونه وسيلة للتعبير عما يعتمل في النفس. ولذلك لجأ كثير من المعتقلين الفلسطينيين إلى المحاولات الشعرية لترجمة مشاعرهم، وللتعبير عنها بالكلمات[25].

لقد حاول المعتقلون إظهار معنويات عالية يتمتعون بها وهم داخل السجون، وقد عبر هذا المقطع الذي يُعد أول نص أدبي يتحرر من المعتقلات عن ذلك بالقول:

"تحرر المسيح
ورغم ما ينزف من دماء
ورغم رغم كفه الجريح
أغار مثل الريح
يسحق الأعداء

تهللي

تغيرت مواقع الأشياء "[26]

إن الأسرى الفلسطينيين طالما تغنوّا بالشعر، حيث حاولوا من خلاله رسم ملامح الحرية، موثقين معاناتهم، وآلامهم داخل أقبية التحقيق، ووحشة الزنازين الانفرادية، حيث يغدو الصمود خلال سنوات السجن الطويلة، شكلا من أشكال صمود الجماهير الفلسطينية في الوطن المحتل وفي المنافي. فهي حرب إرادات ما بين الفلسطيني القابع في الزنازين الصهيونية، وبين السجان الصهيوني، ليبقى السؤال: إرادة من سوف تنتصر؟

قلت: هذا هو السجن يا صاحبي

سماء يحاصرها الخوف والطائرات

زنازين للصلب مغلقة وخيام

ميادين للحرس الغاصبين

يجولون ليلا

ويكتشفون المهارة في القنص[27].

وفي إشارة واضحة من داخل السجن للمقاومة، يقول الشاعر فايز أبو شمالة في قصيدته "وإن عدتم عدنا":

"الغيث يأتي من بعيد من غيمة،

مضى على غيابها قرون

الغيث يأتي حاملا الريح والإعصار

والرعود كي يضحك الأطفال في بلادنا من اليهود"[28]

فبرزت المقاومة الفلسطينية من خلال التعبير عنها بكلمة الغيث، الذي يمطر الأرض فيمنحها وجها طلقا، ويمنح ما عليها الحياة، فالمقاومة الحياة بكل معانيها، تمنح الشعب الحياة.

وبناء على ما سبق، فليس مستغربا، أن يكون الأدب جزءا من المقاومة، حيث لم تعد العلاقة بين الأدب والمقاومة مجرد توظيف أو تصوير لمشهد نضالي أو مقاوم أو حدث معين، بل انتقلت إلى المقاومة الثقافية من خلال الأدب والشعر، ليغدو بذلك الشعر حالة نضالية ووسيلة، تقاوم الاحتلال أو الظلم أو الاضطهاد؛ سعيا للتغيير، وتأكيدا على الحق، وتعزيزا للصمود.

الخاتمة

تضع الظروف التاريخية بصماتها على الحالة النفسية للشعب في مرحلة تاريخية معينة، وعندما تواجه الشعوب مرحلة تهديد خارجي يصبح مرجحا أن تنطبع حالتها النفسية العامة بحوافز البقاء والدفاع عن النفس؛ ما ينتج مقاومة متعددة الأشكال ومنها:

1. المقاومة الثقافية، التي تتضمن أشكالا تعبيرية مختلفة في كل الأجناس الأدبية، ومنها الشعر، لأنه يتفاعل مع اليومي.
2. تكمن أهمية أدب المقاومة في أنه انعكاس لمرحلة تاريخية معينة في حياة الشعوب.
3. عمل أدب المقاومة على تغيير ظروف الإنسان غير الطبيعية؛ فآداب المقاومة، كالمقاومة الفلسطينية، تميزت بالصراع بهدف تحرير الأرض والإنسان، والعمل على بناء الذات الإنسانية من جديد.
4. عملت سلطات الاحتلال الإسرائيلي على محاصرة المعتقلين ثقافياً؛ بمنعهم من الحصول على القلم والدفتر والكتاب، وإجبارهم على سماع الإذاعة الإسرائيلية في أوقات محددة، وكان المعتقل الذي يتم ضبط قلم أو ورقة معه يعاقب في زنزانة انفرادية.
5. عملت سلطات الاحتلال على إفراغ المعتقلين الفلسطينيين ثقافيا وفكريا، وهو من أشدّ الأساليب خطورة، من خلال ترويج كتب ثقافية فارغة المضمون داخل السجون.

6. رغم ممارسات الاحتلال االهمجية بحق المعتقلين، ورغم الظروف الصعبة التي مرّوا بها في المعتقلات؛ إلا أنهم استطاعوا من خلال هذه التجربة القاسية أن يفجروا الطاقات الإبداعية، وأن ينقلوا الواقع الذي عايشوه إلى الخارج.

7. نجح الشعراء والأدباء المعتقلون بفضل مقاومتهم الثقافية من فضح الرواية الإسرائيلية الزائفة، وتثبيت الرواية الفلسطينية التي توضّح تشبُّث الفلسطيني بأرضه ودفاعه عنها، حتى لو قضى عمره بين الزنازين يقاوم المحتل بطريقته وبأبسط الأدوات لتوثيق تجربة تُحفظ لأجيال قادمة.

8. كرّس الشعراء المعتقلون، وغيرهم من الشعراء كلماتهم للأرض والإنسان الفلسطيني، فعملوا على تحريض الشعب عبر الكلمة الثورية الصاخبة مؤمنين أن الرفض والتمرد هما الدرب الأوحد للخلاص والحرية.

التوصيات:

1. حث طلبة الجامعات على دراسة هذا النوع من الأدب لأهميته.

2. تدريس بعض المساقات المتعلقة بأدب المعتقلين في الجامعات الفلسطينية والعربية.

3. عمل مؤتمر دولي يتعلق بأدب المعتقلين.

قائمة المراجع

-أبو شمالة، فايز، (2001)، رياحين بين مفاصل الصخر، مختارات من أدب المعتقلات، جمعية الأسرى والمحررين، حسام، فلسطين.

-إدريس، سماح، (2004)، "بيان من أجل المقاومة الشاملة: نحو ترسيخ خطاب عربي مقاوم"، **مجلة الآداب**، مجلد 52، العدد 5، 6،، ص 4

-الحديدي، داليا محمود، (2008)، "قدسيات أدب المقاومة، **المجلة العربية**، ع 304، قطر.

-العف، عبد الخالق، ومعاذ الحنفي، (2008)، "البواعث الموضوعية في شعر الأسرى الفلسطينيين"، **مجلة الجامعة الإسلامية**، مج 16،ع 1، غزة، فلسطين.

-إلياس، رانيا، (شباط، 2010)، "دور الثقافة في حماية الهوية وتعزيز المقاومة والصمود" جريدة حق العودة، العدد 37، بديل-المركز الفلسطيني لمصادر حقوق المواطنة واللاجئين، بيت لحم، فلسطين.

-بنورة، جمال (1987) ، دراسات أدبية، دار الأسوار، عكا.

-حسين مروة، (د. ت)، الموقف الثوري في الأدب، منشورات الفكر العربي، د. م، ص38

-حسين، راشد، (1982)، قصائد فلسطينية.ط1، دار العودة، بيروت.

-حلواني، فادية المليح (2005)، "تجليات ثقافة المقاومة في الشعر العربي المعاصر،" مجلة العلوم الإنسانية، العدد 8، جامعة محمد خيضر بسكرة.

-درواشة، حسين عمر (2019)، "دور الأدب العربي الفلسطيني وتجلياته في مواجهة صراع الهوية"، **مجلة مداد الآداب**، عدد خاص، الجامعة العراقية، العراق.

-درويش، محمود، (1994)، الديوان. ط14. مج1، دار العودة، بيروت.

-زعزاع، أحمد (2021)، "المقاومة الثقافية في محكي السيرة الذاتية: خارج المكان لإدوارد سعيد أنموذجا"، دراسات معاصرة، مج 5، ع 2، جامعة علي لونيسي، البليدة 2، الجزائر.

-شكري، غالي، (1970). أدب المقاومة، دار المعارف، مصر.

-صالح، عبد الناصر، (1989)، المجد ينحني أمامكم، ط1. اتحاد الكتاب الفلسطينيين، القدس.

-عبد الله، حسن، (1994)، النتاجات الأدبية الاعتقالية، دراسة تاريخية تحليلية، مركز الزهراء للدراسات والأبحاث، القدس.

-عديلة، معتصم خضر، (27-29 تشرين أول 2008)، "تجليات الحب والكراهية في الأغنية الفلسطينية،" مؤتمر فيلادلفيا الدولي الثالث عشر ثقافة الحب والكراهية، جامعة القدس -فلسطين، كلية الآداب والفنون/ جامعة فيلادلفيا.

-عزام، محمد (2000)، "تجليات معارك التحرير في الأدب العربي القديم–الحديث-المعاصر". **دراسات** عدد 14.

-كلمات سجينة، (1977)، مختارات من شعر جنود الثورة الفلسطينية في المعتقلات الإسرائيلية، ط3، القدس.

-نوري، شاكر، (1979)، المقاومة في الأدب السوفيتي ومختارات1939-1945، دار الفارابي، بيروت.

المو اقع الإلكترونية

-أدب السجون (د. ت)، الحرية للأسرى، شوهد بتاريخ: 2022/12/2، في: https://bit.ly/3UwDONc

-شهوان، مها، (2022)، أحاديث السجن.. عن الأدب الفلسطيني في معتقلات الاحتلال، نون بوست، في: 2022/7/1، شوهد في: 2022/12/3، في: https://bit.ly/3Vsq8Ej

-مركز حنظلة للأسرى والمحررين، (2022)،تاريخ الحركة الأسيرة تجربة لم يعرف لها التاريخ مثيل، شوهد بتاريخ: 2022/12/3، في: https://bit.ly/3VDPUVQ

-مؤسسة الضمير، "الحياة الثقافية والتعليمية في السجون"، مؤسسة الضمير، تاريخ: آذار 2020، شوهد بتاريخ: 2022/12/2 https://bit.ly/3FlLugO.

هوامش البحث:

[1] **إدريس، سماح، (2004)، "بيان من أجل المقاومة الشاملة: نحو ترسيخ خطاب عربي مقاوم"، مجلة الآداب، مجلد 52، العدد 5، 6،، ص 4**

[2] **إلياس، رانيا، (شباط، 2010)، "دور الثقافة في حماية الهوية وتعزيز المقاومة والصمود" جريدة حق العودة، العدد 37، بديل-المركز الفلسطيني لمصادر حقوق المواطنة واللاجئين، بيت لحم، فلسطين، ص 10**

ISSN: *2352-9830* ***EISSN:*** *2600-6898*

[3] عديلة، معتصم خضر، (27-29 تشرين أول 2008)، "تجليات الحب والكراهية في الأغنية الفلسطينية،" مؤتمر فيلادلفيا الدولي الثالث عشر ثقافة الحب والكراهية، جامعة القدس -فلسطين، كلية الآداب والفنون/ جامعة فيلادلفيا. ص 8

[4] حلواني، فادية المليح (2005)، "تجليات ثقافة المقاومة في الشعر العربي المعاصر،" مجلة العلوم الإنسانية، العدد 8، جامعة محمد خيضر بسكرة، ص 3

5 مؤسسة الضمير، "الحياة الثقافية والتعليمية في السجون"، مؤسسة الضمير، تاريخ: آذار 2020، شوهد بتاريخ: 2022/12/2، في: https://bit.ly/3FlLugO

6 أدب السجون (د. ت)، الحرية للأسرى، شوهد بتاريخ: 2022/12/2، في: https://bit.ly/3UwDONc

7 أدب السجون (د. ت)، الحرية للأسرى، شوهد بتاريخ: 2022/12/2، في: https://bit.ly/3UwDONc

[8] العف، عبد الخالق، ومعاذ الحنفي، (2008)، "البواعث الموضوعية في شعر الأسرى الفلسطينيين"، مجلة الجامعة الإسلامية، مج 16، ع 1، غزة، فلسطين، ص 6

[9] المصدر السابق نفسه

[10] مركز حنظلة للأسرى والمحررين، (2022)،تاريخ الحركة الأسيرة تجربة لم يعرف لها التاريخ مثيل، شوهد بتاريخ: 2022/12/3، في: https://bit.ly/3VDPUVQ

[11] شهوان، مها، (2022)، أحاديث السجن.. عن الأدب الفلسطيني في معتقلات الاحتلال، نون بوست، في: 2022/7/1، شوهد في: 2022/12/3، في: https://bit.ly/3Vsq8Ej

[12] زعزاع، أحمد (2021)، "المقاومة الثقافية في محكي السيرة الذاتية: خارج المكان لإدوارد سعيد أنموذجا"، دراسات معاصرة، مج 5، ع 2، جامعة علي لونيسي، البليدة 2، الجزائر، ص 319).

[13] شكري، غالي، (1970). أدب المقاومة، دار المعارف، مصر، ص7

[14] درواشة، حسين عمر (2019)، "دور الأدب العربي الفلسطيني وتجلياته في مواجهة صراع الهوية"، مجلة مداد الآداب، عدد خاص، الجامعة العراقية، العراق، ص 1174.

[15] الحديدي، داليا محمود، (2008)، "قدسيات أدب المقاومة، المجلة العربية، ع 304، قطر، ص 82.

[16] زعزاع، مصدر سابق، ص 134.

[17] نوري، شاكر، (1979)، المقاومة في الأدب السوفيتي ومختارات1939-1945، دار الفارابي، بيروت، ص18-19

[18] غالي، مصدر سابق، ص 13

[19] المصدر السابق، ص20

[20] عزام، محمد (2000)، "تجليات معارك التحرير في الأدب العربي القديم–الحديث-المعاصر". دراسات عدد 14، ص193

[21] بنورة، جمال، (1987) ، دراسات أدبية، دار الأسوار، عكا، ص135

[22] حسين مروة، (د. ت)، الموقف الثوري في الأدب، منشورات الفكر العربي، د. م، ص38

[23] درويش، محمود، (1994)، الديوان. ط14. مج1، دار العودة، بيروت، ص54

[24] حسين، راشد، (1982)، قصائد فلسطينية.ط1، دار العودة، بيروت، ص148

[25] عبد الله، حسن، (1994)، النتاجات الأدبية الاعتقالية، دراسة تاريخية تحليلية، مركز الزهراء للدراسات والأبحاث، القدس، ص 16.

[26] كلمات سجينة، (1977)، مختارات من شعر جنود الثورة الفلسطينية في المعتقلات الإسرائيلية، ط3، القدس، ص 76 – 77.

[27] صالح، عبد الناصر، (1989)، المجد ينحني أمامكم، ط1. اتحاد الكتاب الفلسطينيين، القدس، ص94.

[28] أبو شمالة، فايز، (2001)، رياحين بين مفاصل الصخر، مختارات من أدب المعتقلات، جمعية الأسرى والمحررين، حسام، فلسطين، ص 158.